مناهج تحقيق المخطوطات عند العرب

المحدثون نموذجا

د. حفيظة طالب كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية وهران

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم النبيين والمرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد،

الحمد لله الذي علمنا ما لم نكن نعلم، وهدانا إلى تحري الصواب فيما نعمل وأرشدنا إلى حفظ ما انتجته قرائح علمائنا الأقدمين وصيانته من التلف والضياع وتجميعه ووضع كنوزه في خزائن ترعاه من الآفات الطبيعية ومن أيدي العابثين به.(1)

إنّ تراث الأمة المخطوط جزء أصيل من كيانها ووجودها، وهذا التراث الذي ورثناه عن الأسلافنا يضم في تخصصاته المختلفة كنوزا فهو يربط خلف الأمة بسلفها وماضيها بحاضرها ويمدها برصيد من الثقافة والفكر وصور الحضارة الانسانية وتجارب حياتهم، وعصارة فكرهم وثمرة علمهم ونتاج عملهم وتراثهم الذي تركوه ميراثا للأمة، وهو على كونه ميراثا لا يزال يحمل في كثير من جوانبه معنى الابتكار والتجديد، وإنه لمن اليمن والخير أن تتضافر في تحقيق هذا الهدف جامعات ومراكز ثقافية ومعاهد ومراكز للتراث. (2)

وإنّ هذه الجهود التي تبذل في تحقيق التراث تحمل أعباء إيصال الماضي إلى الحاضر، بل والاستشراف للمستقبل، لأنّ المستقبل الذي نريد بناءه لأمتنا لا يمكن أن ينفصم عن الماضي، فالتراث لا يمثل رجعة إلى الوراء كما قد يتوهم المتوهمون وإنما هو قوة دفع إلى الأمام، ليست النظرة إلى الوراء فيه إلاّ لإحكام النظرة إلى الأمام، ومن هنا كانت المنطلقات الأساسية لعمل التحقيق أن يصبح التراث موصولا بالمعاصرة قادرا على النمو بها، هاديا إلى الصراط السوي في التقدم نحو المستقبل(3)

تعريف المخطوط:

لم تكن كلمة"مخطوط" أو "مخطوطة" المستخدمة حاليا في هذا العصر معروفة في القديم اطلاقا بمعناها الاصطلاحي إذ لم تكن مستخدمة، وكانوا يستعملون بدلا منها إسم كتاب أو سفر أو جزء أو رسالة أو مجلد وغير ذلك من المصطلحات، وكانت هذه العبارات تطلق على كل كلام مؤلف، يبحث موضوعا ما أو عدّة موضوعات مسجلة في أوراق مكتوبة بخط اليد.

وظهرت كلمة مخطوط في العصر الحديث لتقابل كلمة مطبوع بعد أن عرف العالم طباعة الكتب وصارت تطلق على نسخة الكتاب التي خطها المؤلف أو غيره من النساخ بخط اليد أو النسخة التي يدفعها المؤلف إلى المطبعة ليطبع فيها ثم ينشر(4)

المخطوط العربي:

الحديث عن المخطوط العربي حديث شاق، والحديث عنه خلال القرون الأولى من تاريخه أكبر مشقة وأشدّ عسرا والتعامل مع المخطوط في حدّ ذاته صعب، فكيف إذن تكون صعوبة التعامل مع أقدم المخطوطات وأشدّها غموضا في الكتابة وأكثرها تعرضا للفساد.

فماذا نعني بالمخطوط العربي؟

هل يتسع مدلول كلمة"مخطوط" بحيث يشتمل على كل ما كتب بخط اليد حتى لو كان رسالة او عهدا او نقشا؟أم انّ هذا المفهوم يضيق حتى يقتصر على ما يمكن أن يسمى بالكتاب المخطوط؟

ثم ماذا نعني بلفظ"العربي" هل هو نسبة إلى بلاد العرب أم إلى لغة العرب؟ يقول الدكتور الحلوجي أنّ المخطوط العربي هو الكتاب المكتوب بخط عربي سواء أكان في شكل لفائف أو في شكل صحف ضمّ بعضها إلى بعض على هيئة دفاتر وكراريس. وأنه كتاب والكتب لا توجد في أمة من الأمم إلاّ إذا تحققت لها عناصر ثلاثة: مواد ليكتب عليها وأدوات يكتب بها وأناس يعرفون الكتابة وتراث فكري يحرص الناس على تدوينه وتداوله.(5)

اخراج المخطوط العربي:

كيف كان التأليف عند العرب؟

لقد سلك المؤلفون العرب طريقتين لوصول المخطوط إلى القارئ

أما **الطريق الأول**:**فهو التأليف**

يعكف المؤلف على جمع مادة كتابه ومراجعتها وتهذيبها وتنقيحها والاضافة اليها ثم يخرجها للناس بعد أن تستوي على صورة يرتضيها.وكان المؤلف يعتبر الصورة الأولى التي يكتبها مسودة للكتاب يصحح فيها ويغير ويبدل كما يشاء، حتى إذا استقامت له العبارة، بيضها في صورة نهائية هي التي يخرجها للناس(6)

الطريق الثاني: وهو الذي تدفقت عبره المخطوطات العربية وهي ظاهرة الأمالي وهي ثمار مجالس الإملاء التي انتشرت في الحواضر الاسلامية خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين حتى ليخيل إلى المرء انّ الاملاء كان هو الطريقة الغالبة في التأليف خلال هذين القرنيين(7)

فإذا أمعنا النظر في تراثنا العلمي وجدنا أنفسنا أما حشد هائل من الكتب والمصنفات التي دونها السابقون في شتى صنوف العلم والمعرفة من علوم في الشريعة واللغة والأدب والطب والحساب والهندسة والمنطق والفلاحة والصيدلة والصناعة وغير ذلك.

ومن يحيل النظر في بعض المؤلفات التي ترصد مسيرة تراثنا في حركة التأليف والفكر مثل كتاب كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون لحاجي خليفة يقف على ما يثير العجب والدهشة لشمول واتساع التأليف عند العلماء العرب و المسلمين، حيث شمل جميع جوانب العلم ودقائق المعرفة فخلفوا لنا في ذلك كله تراثا ضخما يكاد يفوق الحصر ومن آيات ذلك ما نقرأه في تاريخنا الحضاري عن عناية الخلفاء والعلماء بالكتب والمكتبات التي انتشرت في أرجاء الدولة الاسلامية(8)

فقد ذكر أبو عثمان عمرو الجاحظ:"ولولا ما أودعت لنا الأوائل من أنواع سيرها حتى شاهدنا بها ما غاب عنا، وفتحنا بها كل مستغلق كان علينا، فجمعنا إلى قليلنا كثيرهم وأدركنا ما لم نكن ندرك إلاّ بهم لولا ذلك لحسن حظنا من الحكمة ولضعف سبيلنا إلى المعرفة"(9)

ويقول عبد السلام محمد هارون:" هذا التراث الضخم الذي آل إلينا من أسلافنا صانعي الثقافة الاسلامية العربية جدير بأن نقف أمامه وقفة الإكبار والإجلال، ثم نسمو برءوسنا في اعتزاز وشعور صادق بالفخر والغبطة والكبرياء"(10)

التحقيق

أولا: تعريف التحقيق

التحقيق لغة: أصله في اللغة من حقّ الشيء إذا ثبت صحيحا، فالتحقيق اثبات الشيء وإحكامه وتصحيحه، تقول حقق الأمر، وأحققته إذا أثبته وصرت منه على يقين(11)
اصطلاحا: هو الفحص العلمي للنصوص من حيث مصدرها وصحة نصها وإنشاؤها، وصفاتها وتاريخها.

وفي تعريف آخر:معناه أن يؤدي الكتاب آداء صادقا كما وضعه مؤلفه، كما وكيفا بقدر الإمكان(12)

تحقيق المخطوطات والكتب:هو اخراجها للناس وتيسيرها للإستفادة منها، في الصورة التي أرادها لها مؤلفها، أو أقرب ما تكون إلى ذلك ولا يدرك ذلك إلاّ بعناء وصبر على البحث والتمحيص (13)

ويرى الدكتور الغرياني أنّ التحقيق ليس مقصورا على المخطوط من التراث، بل إنّ كثيرا من الكتب المطبوعة حاجتها إلى التحقيق أمس من بعض المخطوطات، لما أصابها من تحريف وتشويه واضطراب، فالنص الذي يطبع محرفا يصيب الناس منه ضرر ووبال. لأنه إن كان في علوم الشرع والحديث ربما أدى إلى تحليل الحرام وتحريم الحلال، أو الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإن كان في غيرها من العلوم ربما أعطى أحكاما خاطئة في بعض القضايا(14)

مناهج التحقيق عند العرب

أكثر المبتدئين لا يفرقون بين تحقيق الكتاب والتعليق عليه بما لا علاقة له بالتحقيق، فصاروا يسمون كلّ شيء تسوّد به حواشي الكتب المطبوعة تحقيقا. وأصول فن التحقيق عربية إسلامية محضة. يقول الدكتور رمضان عبد التواب في أول كتابه مناهج تحقيق التراث بين القدامى والمحدثين :"يظن بعض الباحثين المحدثين من العرب أنّ فن تحقيق النصوص فن حديث ابتدعه المعاصرون من المحققين العرب، أو استقوه من المستشرقين الذين سبقونا في العصر الحاضر بعض الوقت في تحقيق شيء من تراثنا ونشره بين الناس(15)"فقد جاء في قواعد تحقيق المخطوطات لصلاح الدين المنجد حيث يقول في كتابه:" أنّ المستشرقين سبقوا العرب إلى نشر تراثنا منذ أكثر من مائة عام، وشاء العرب أن يحذوا حذو المستشرقين في تحقيق النصوص..." وأضاف:" أنه من الإنصاف أن نقرر انّ المستشرقين كان لهم فضل

السبق في نشر تراثنا العربي منذ القرن الماضي وأنهم أول من نبهنا إلى كتبنا ونوادر مخطوطاتنا".(16)

لكن الحقيقة بخلاف ذلك فقد قام فن تحقيق النصوص عند العرب مع فجر التاريخ الإسلامي، وكان لعلماء الحديث اليد الطولى في إرساء قواعد هذا الفن في تراثنا العربي، وتأثر بمنهجهم هذا أصحاب العلوم المختلفة، وإنّ كثيرا مما نقوم به اليوم من خطوات في فن تحقيق النصوص ونشرها،بدء من جمع المخطوطات والمقابلة بينها، مرورا بضبط عباراتها وتخريج نصوصها وانتهاء بفهرسة محتوياتها، لمما سبقنا به أسلافنا العظام من علماء العربية الخالدة(17)

وذكر مية محمد مجاهد شعبان:" أنّ علم التحقيق لم ينشأ دفعة واحدة، بل إنه قد مرّ بمراحل وكانت كل مرحلة تتم سابقتها وتضيف إليها، فقد قام أجدادنا العرب والمسلمون بجهود كبيرة في تحقيق النصوص وتوثيقها وفق قواعد وضوابط مقررة لإثبات صحة النص ومعرفة صاحبه وتاريخ نسخه وناسخه وغير ذلك من الأمور التي تنتهي بإخراج النص كما وضعه صاحبه على قدر المستطاع".يقول الدكتور شوقي ضيف مؤكدا هذه الحقيقة:"لقد كانوا يعرفون كل القواعد العلمية التي نتبعها في إخراج كتاب لا من حيث رموز المخطوطات فحسب، بل أيضا من حيث اختيار أوثق النسخ لاستخلاص أدق صورة للنص،ولعل خير ما يمثل عملهم في هذا الجانب إخراج اليونيني، حافظ دمشق المشهور في القرن السابع الهجري لصحيح البخاري"

"لكن ماقاموا به لم يشكل قواعد علم مستقل بذاته كغيره من العلوم، حتى جاء عصر المطبوعات وهو أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، إذ انصرف عدد من رجال العلم والمعرفة إلى تحقيق التراث والإقبال على نشره "(18)

أول منهج في التحقيق عند المسلمين:

يقول الغرياني في كتابه أنّ أول من نبهنا في أعمال المسلمين الأولى إلى مبدأ التحقيق متمثلا في معارضة النصوص لتوثيقها وتصحيحها كانت في عهد النبي صلى الله عليه وسلم حيث كان النبي صلى الله عليه وسلم يعرض على جبريل عليه السلام القرآن فقد جاء في رواية البخاري أنّ "فعرض عليه مرتين في العام الذي قبض فيه"(19)

وأنّ العرضة الأخيرة كان عليها الاعتماد في بيان ما استقر عليه الوحي بعد نسخ المنسوخ(20)

وقد عرض زيد بن ثابت القرآن على النبي صلى الله عليه وسلم حيث قال القاضي عياض:" وقد روي عن زيد بن ثابت أنه قال:" كنت أكتب الوحي عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يملي عليّ فإذا فرغت ،قال: اقرأه، فأقرأه، فإن كان فيه سقط أقامه"(21)

ولما عزم عثمان رضي الله عنه في خلافته على نشر المصحف وتوزيعه في الأمصار الاسلامية أحضر النسخة الأم من حفصة رضي الله عنها وعهد بالأمر إلى جماعة من ذوي الحفظ والعلم والفطنة والفصاحة من قبائل العرب فكان سعيد بن العاص يملي وزيد يكتب.(22)

وهذا يضاهي ما يعرف الآن في فن التحقيق بتقديم النسخة الأخيرة إذا كان لأصل الكتاب أكثر من إبرازة.(23)

مناهج التحقيق عند المحدثين:

كما ذكرنا من قبل أنّ العرب سبقوا علماء أوروبا إلى الإهتداء للقواعد التي يقابلون بها بين النصوص المختلفة، لتحقيق الرواية، والوصول بتلك النصوص إلى الدرجة القصوى من الصحة. وإنّ ما صنعه عليّ بن محمد بن عبد الله اليونيني (المتوفى سنة 701هـ) في تحقيق روايات "صحيح البخاري" للإمام البخاري المتوفى(المتوفى سنة256هـ) وإخراج النص الذي بين أيدينا الآن من هذا الكتاب، ليعد مفخرة لعلمائنا القدامى، في التحقيق والضبط، وتحري الصواب، وسلوك الطرق المختلفة للوصول إليه.

وأول شارح لصحيح البخاري، وهو الخطابي (المتوفى سنة 386هـ) لم يكن يعرف إلا الروايتين الأوليين. وتعتمد رواية "الفربريّ" على أصل يرجع إلى نص نسخة أبي جعفر محمد بن أبي حاتم، كاتب البخاري، وسمعه الفربري من البخاري مرتين، أولاهما: عندما كان في "فربر" سنة248هـ. والثانية في بخارى سنة252هـ.(24)

وقد كانت هذه النصوص المتداولة من صحيح البخاري، مختلطة ومعقدة للغاية، إلى درجة أن النسخ المنسوخة عنها كانت تختلف فيما بينها اختلافا كبيرا. وعندما اقتصر الاشتغال في القرن السابع الهجري على اختلاف النص في إطار الروايات، التي ترجع النص المتداول

للفربري، قام اليونيني بإعداد النص الذي بين أيدينا من صحيح البخاري، بمراجعة الروايات المختلفة، وتحقيقها، وتحريرها مما شابها من خلط واضطراب(25)

هذا عن البخاري واليونيني بصفة خاصة، أما أهل الحديث فقد ألفوا كتبا تشمل على قواعد في كتابة العلم وضبطه هي في غاية الأهمية للمحقق ترشده إلى كثير من الأمور التي يحتاج إليها في التحقيق، ابتداء من كيفية التعرف على قراءة الخط والاهتمام بدراسة صحة نسبة الكتاب إلى صاحبه وانتهاء بوضع الفهارس وبيان كيفية استعمال الاختصارات والرموز منبها عليها في أول الكتاب أو في آخره(26)

وبعض هذه القواعد والضوابط طبقها علماء الحديث في كتبهم تطبيقا عمليا بقي منهجا لمن بعدهم وقد نبهوا عليه في كتبهم منها:

1-"المحدث الفاصل بين الراوي والواعي" للحسن بن عبد الرحمن بن خلاّد الرامهرمزي(ت360هـ)

2- "الكفاية في علم الرواية" للخطيب البغدادي أبو بكر أحمد بن علي (ت463هـ)

3-" الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع" للبغدادي

4- "الإلماع إلى معرفة أصول الرواية وتقييد السماع" للقاضي عياض اليحصبي(ت544هـ)

5-"مقدمة ابن الصلاح في علوم الحديث" للشهرزوري (ت643هـ)

6-" تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم" لإبن جماعة (ت 733هـ)

7-" المعيد في أدب المفيد والمستفيد" لعبد الباسط بن موسى العلموي(ت981هـ).(27)

لقد اتبع المحدثون منهجا في التحقيق يتمثل في

_ صحة نسبة الكتاب إلى صاحبه

_ المقابلة بين النسخ: وتسمى المعارضة التي يدور عليها تحقيق النص هي عند علماء الحديث واحدة من اعلى طرق التحمل والرواية، ومعناها أنّ يقابل الطالب أصله بأصل شيخه من حفظه او من كتابه أو يقابله مع غير شيخه بحضرة الشيخ بأنّ يقرأ الطالب والشيخ يسمع كما يعرض القارئ القرآن على المقرئ (28)

وهذا هو العلموي يقول عن طالب العلم:" عليه مقابلة كتابه بأصل صحيح موثوق به، فالمقابلة متعينّة للكتاب الذي يرام النفع به. قال عروة بن الزبير لابنه هشام رضي الله

عنهم:كتبت؟ قال : نعم، قال: عرضت كتابك؟ أي على أصل صحيح، قال: لا، قال: لم تكتب".(29)

ـــ المفاضلة بين النسخ

ـــ قرب النسخة من المؤلف:

لاشك أنّ أرفع النسخ قدرا وأعلاها شأنا ما كانت أقرب إلى المؤلف بأن كانت بخطه او مجازه من قبله وكلما قربت النسخة المكتوبة من مؤلفها كانت الثقة بها أكبر لذلك كان المحدثون يتسابقون في طلب علو الاسناد(30)

ـــ النسخة التي اعتنى بها العلماء:

وكما تفضل نسخة المخطوطة بقدر قربها من المؤلف، الذي يضاهي علو الإسناد في الرواية، كذلك تفضل بتداول العلماء إياها، بأن يكون كتبها عالم، أو قابلها، أو تملكها، أو راجعها، لما قد تشتمل عليه من الحواشي والتصويبات.(31)

ـــ تعدد ابرازات الكتاب

ـــاصلاح الخطأ

ـــعلاج السقط

ـــ علاج الزيادة

ـــ علاج التشابه بين بعض الحروف

ـــصنع الحواشي

ـــعلامات الترقيم والرموز والاختصارات

ـــالهوامش والاعتناء بالضبط والتخريج

ـــ مقدمة التحقيق: حيث كان لأسلافنا منهج دقيق في التحقيق، لم يفتهم منه، حتى وضع المقدمات العلمية، على النحو المعروف الآن في مقدمات التحقيق للكتب، من بيان خطة العمل، والتعريف بصاحب الكتاب، وشيوخه والراوين عنه، ومؤلفاته، ونبذ من حياته العلمية، ثم دراسة الكتاب

دراسة شاملة ببيان موضوعه، ومكانته بين الكتب في فنه، وتحرير مواضع الشبه، التي ترد على بعض مسائله، إلى غير ذلك من المسائل المهمة(32)

ـــ التضبيب : ومعناه استغلاق الكلام وعدم فهم معناه لسقم في لفظه مع صحة ورود الرواية به ويسمى أيضا التمريض وهو أن تكتب علامة (ص)

وأخيرا الفهارس.

إنّ الجهودالذي تبذل في تحقيق المخطوطات وفهرستها وتصويرها جهود كبيرة مقدرة لكن كما يقول كما جاء في كتاب تحقيق المخطوطات من ابحاث المؤتمر الرابع للتراث الاسلامي انّ هذا التراث لا تكفيه الجهود المتفرقة بل يحتاج إلى توجه يحكمه "مخطط استراتيجي" يحدد الأبعاد والأدوار والمراحل والأولويات.

قائمة التهميش

1-تمهيد لصيغة الخط والمخطوط والوراقة والفهرسة في الحضارة العربية، عبد القادر أحمد عبد القادر،

2-تحقيق نصوص التراث في القديم والحديث، الغرياني، الصادق عبد الرحمن، القاهرة، مكتبة الخانجي، ط 1 1985م، ص5

3-ينظر تقرير لجنة وضع مشروع أسس تحقيق التراث العربي ومناهجه ص

4-صنعة الخط، دمشق، دار الوثائق ،عبد القادر أحمد عبد القادر ص65

5- المخطوط العربي، عبد الستار الحلوجي، ط2 1989م ص 133

6-المرجع نفسه ص135

7-المرجع نفسه ص139

8-تحقيق المخطوطات بين الواقع والنهج الأمثل عبد الله عسيلان، الرياض، مطبوعات الملك فهد، ط 1994م ص15

9-الحيوان، الجاحظ، ج1ص85

10- تحقيق النصوص ونشرها، عبد السلام هارون، ص5

11-الصحاح ج4 ص1461

12-تحقيق النصوص ونشرها، هارون عبد السلام، ص 46، 47

13- تحقيق نصوص التراث في القديم والحديث، الصادق عبد الرحمن الغرياني، منشورات مجمع الفاتح للجامعات، 1989م ، ص7

14- المصدر نفسه ص8

15- مناهج تحقيق التراث بين القدامى والمحدثين، عبد التواب رمضان، ص 35

16- قواعد تحقيق المخطوطات، المنجد، صلاح الدين، بيروت، دار الكتاب الجديد، ط6 ،1982 ص7

17- مناهج تحقيق التراث بين القدامى والمحدثين، عبد التواب رمضان،ص 13

18- مية محمد مجاهد شعبان، مجلة واحة البيان الإلكترونية www.landcivi.com05/03/2013 18:07

19-البخاري، الصحيح، ج10ص419

20- تحقيق نصوص التراث،الغرياني ص15

21-الالماع ص 161

22-فتح الباري، ج10ص393

23- تحقيق نصوص التراث، الغرياني ص17

24-مناهج تحقيق التراث، عبد التواب رمضان، ص14

25- المرجع نفسه ص14

26- مناهج تحقيق التراث،عبد التواب رمضان ص 19

27- الغرياني، ص21

28- المرجع نفسه ص23

29-ينظر، المعيد في أدب المفيد والمستفيد ص135

30_ تحقيق نصوص التراث، الغرياني ص27

31- المرجع نفسه ص 29

32_ المرجع نفسه ص37



